بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الثاني

الحمد لله رب العالمين، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلىٰ الله وسلم عليه وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

أما بعد..

نواصل القراءة في كتاب «شرح حديث أبي الدرداء» للحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ.

قال العلامة الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن السلامي البغدادي ثم الدمشقي الحنبلي في رسالته «شرح حديث أبي الدرداء في طلب العلم»:

قوله ﷺ: «**وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ العِلْمِ رِضًا بِمَا يَصْنَعُ**».

وخرّج ابن ماجه من حديث زر بن حبيش قال: أتيت صفوان بن عسال، فقال: مَا جَاءَ بِكَ؟ قُلْتُ: أَطْلُبُ العِلْمَ. قال: فَإِنِّي سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول: «**مَا مِنْ خَارِجٍ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ إِلَّا وَضَعَتْ لَهُ الْمَلَائِكَةُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا بِمَا يَصْنَعُ**»، وخرّجه الترمذي وغيره موقوفًا علىٰ صفوان.

أي أنّ هذا شاهدٌ لحديث أبي الدّرداء، شاهد لهذه الجملة الثانية «**وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ العِلْمِ رِضًا بِمَا يَصْنَعُ**»، وما من شك أن هذه فضيلة عظيمة من الفضائل التي ينالها طالب العلم، أنَّ ملائكة الله ﷻ تضع أجنحتها لطالب العلم (**رضًا بما يصنع**) أي: رضًا بهذا الصنيع الذي هو طلب العلم.

وقد اختلف الناس في تأويل وضع الملائكة أجنحتها:

فمنهم من حمله علىٰ ظاهره، وأن المراد فرش الأجنحة وبسطها لطلَّاب العلم لتحملهم عليها إلىٰ مقاصدهم من الأرض التي يطلبون فيها العلم؛ إعانةً لهم علىٰ الطلب وتيسيره عليهم.

وقد سمع هذا الحديث بعض الملحدين، فقال لطلبة العلم: "ارفعوا أرجلَكم عن أجنحة الملائكة لا تكسروها" يستهزئ بذلك، فما زال من موضعه حتىٰ جفّت رجلاه وسقط.

أي أنه لم يتحرك من موضعه (حتىٰ جفّت رجلاه) أي من حركة الدم فيها يبست فسقط من موضعه، وهذه عقوبة معجّلة وقد يسلم منها المرء؛ لكنه يبوء بسخط الله لأنه لا يستهزئ بشيء من أحاديث رسول الله ﷺ ولا يستهزئ إلا ضال منحرف العقيدة؛ لأن أحاديث رسول الله ﷺ كلها حق وكلها معظّمة، وكلها

متلقاة بالتصديق والقبول.

ﮋﮋ ◊ ﮊﮊ

وروي عن آخر قال: لأكسرن أجنحة الملائكة. فصنع له نعلًا طرقها بمسامير كثيرة، فمشىٰ بها إلىٰ مجلس العلم فجفّت رجلاه ووقعت فيهما الأكلة.

أي أنه حصَلت له هذه العقوبة المعجّلة للسُّخرية التي وقعت منه بحديث رسول الله ﷺ.

ﮋﮋ ◊ ﮊﮊ

ومنهم من فسَّر وضع الملائكة أجنحتها بالتواضع لهم، والخضوع لطلاب العلم كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢١٥﴾ [الشعراء] وفي هذا نظر؛ لأنّ للملائكة أجنحة حقيقة بخلاف البشر.

ومنهم من فسر ذلك بأن الملائكة تحفُّ بأجنحتها مجالس الذكر إلىٰ السماء كما جاء ذلك صريحًا في حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ.

وورد مثله في بعض ألفاظ حديث صفوان بن عسال مرفوعًا: «**إِنَّ طَالِبَ الْعِلْمِ لَتَحُفُّهُ الْمَلائِكَةُ وَتَظِلّه بِأَجْنِحَتِهَا، ثُمَّ يَرْكَبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا حَتَّىٰ يَبْلُغُوا إِلَىٰ سَمَاءِ الدُّنْيَا، مِنْ حُبِّهِمِ لِمَا يَطْلُبُ**».

ولعل هذا القول أشبه، والله أعلم.

الحديث علىٰ ظاهره كما قال عليه الصلاة والسلام: «**إن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم**» وهو أمر غيبي لا يخاض فيه بكيفية؛ لكنه حقٌّ وكما أخبر النبي عليه الصلاة والسلام.

ووضع الملائكة أجنحتها هو وضعٌ حقيقي تضع أجنحتها تواضعًا له وتوقيرًا وإكرامًا لما يحمله من ميراث عظيم، ولما هو مشتغلٌ به من طلبٍ للعلم الذي هو سبيل رفعة لصاحبه في دنياه وأُخراه، فالملائكة تضع أجنحتها حقيقةً تواضعًا له وتوقيرًا وإكرامًا له من أجل هذا العلم الذي هو سالكٌ في سبيله.

ﮋﮋ ◊ ﮊﮊ

قوله ﷺ: «وَإِنَّ العَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ، حَتَّىٰ الحِيتَانُ فِي جَوفِ المَاءِ».

قد أخبر الله في كتابه باستغفار ملائكة السماء للمؤمنين عمومًا بقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر:٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [الشورىٰ:٥] فهذا للمؤمنين عمومًا.

فأمَّا العلماء فيستغفر لهم أهل السماء وأهل الأرض حتىٰ الحيتان في البحر، وخرّج الترمذي من حديث

أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرَضِينَ حَتَّىٰ النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّىٰ الحُوتَ فِي البَحْرِ لَيُصَلُّونَ عَلَىٰ مُعَلِّمِي النَّاسِ الخَيْرَ» وصححه الترمذي.

وخرّج الطبراني من حديث جابر، عن النبي ﷺ قال: «مُعَلِّمُ النَّاسِ الْخَيْرَ يَسْتَغْفِرُ لَهُ كُلُّ شَيءٍ حَتَّىٰ الحِيتَانُ فِي الْبَحْرِ».

ويروىٰ من حديث البراء بن عازب، عن النبي ﷺ: «العُلَمَاءُ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، يُحِبُّهُمْ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَتَسْتَغْفِرُ لَهُمُ الحِيتَانُ فِي البَحْرِ إِذَا مَاتُوا إِلَىٰ يَومِ الْقِيَامَةِ».

أي أن هذه كلها شواهد تشهد لما جاء في حديث أبي الدرداء من فضيلة عظيمة لطالب العلم، أن العالم ليستغفر له من في السَّمٰوات والأرض، حتىٰ الحيتان في الماء، يعني كلها تستغفر له وتسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يغفر له.

وهذه لا شك فضيلة عظيمة جدًّا، الحيتان التي في الماء كم عددها؟ كلها تستغفر لطالب العلم، انظر هذه الفضيلة وعظّم حديث رسول الله ﷺ، وانظر هذه المخلوقات الكثيرة حتىٰ السَّمٰوات والأرض، كلها تستغفر لطالب العلم تدعو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يغفر له، وهذا يدل علىٰ أن طريق العلم طريق مبارك.

سبحان الله! هذا الطالب يدخل في العلم يطلب العلم ثم الكون كله يتحرك من حوله دعاءً له.. الكون كله السَّمٰوات والأرض والحيتان تستغفر له، تدعو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يغفر له، فهذا يدل علىٰ أن هذا الطريق الذي سلكه طالب العلم طريقٌ مباركة يحفها الخير وتتوالىٰ فيها البركات وترتفع بها الدَّرجات ويتحقق بها الغفران للذُّنوب والخطيئات، فهذا كلُّه مما يُعلي الهمة ويستنهض العزيمة للحرص علىٰ العلم والعناية به.

ورود الاستغفار أيضًا لطالب العلم. ففي «مسند الإمام أحمد» عن قبيصة بن المخارق قال: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «مَا جَاءَ بِكَ؟» قُلْتُ: كَبُرَ سِنِّي، وَرَقَّ عَظْمِي، وَأَتَيْتُكَ لِتُعَلِّمَنِي مَا يَنْفَعُنِي اللهُ بِهِ. قال: «يَا قَبِيصَةُ؛ مَا مَرَرْتَ بِحَجَرٍ وَلَا شَجَرٍ وَلَا مَدَرٍ إِلَّا اسْتَغْفَرَ لَكَ».

يعني وأنت في طريقك هذا جئت تطلب العلم «مَا مَرَرْتَ بِحَجَرٍ وَلَا شَجَرٍ وَلَا مَدَرٍ إِلَّا اسْتَغْفَرَ لَكَ»، الحاصل أن طالب العلم تستغفر له السَّمٰوات والأرض حتىٰ الحيتان في الماء، وهذا دعاء من هذه المخلوقات كلها لطالب العلم أن يغفر له، وهذا يدل علىٰ أن طلب العمل من أعظم أبواب المغفرة والفوز

برضوان الله ﷻ.

وقد دل قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٤٢ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ [الأحزاب].

علىٰ أنَّ الله وملائكته يصلون علىٰ أهل الذكر، والعلم من أفضل أنواع الذكر، كما سبق تقريره.

وخرّج الحاكم من حديث سُليم بن عامر قال: "جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ أَبِي أُمَامَةَ فَقَالَ: يَا أَبَا أُمَامَةَ، إِنِّي رَأَيْتُ فِي مَنَامِي كَأَنَّ المَلَائِكَةَ تُصَلِّي عَلَيْكَ كُلَّمَا دَخَلْتَ وَكُلَّمَا خَرَجْتَ، وَكُلَّمَا قُمْتَ وَكُلَّمَا جَلَسْتَ فَقَالَ أَبُو أُمَامَةَ: اللَّهُمَّ غفْرًا، دَعُونَا عَنْكُمْ، وَأَنْتُمْ لَوْ شِئْتُمْ لَصَلَّتْ عَلَيْكُمْ الَملائكَةُ. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٤٢ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ [الأحزاب].

يعني لا تبخل علىٰ نفسك، اعتني بالعلم وأكثر من ذكر الله ﷻ فتنال ذلك، كما دلّت علىٰ ذلك هذه الآية الكريمة.

هنا حقيقة يأتي سؤال وطالب العلم يسمع هذه الفضيلة «حتىٰ الحيتان في الماء تستغفر» ما السر في هذا؟

قد يرد هذا السؤال في الذهن: ما السر في أن الحيتان في البحر تستغفر لطالب العلم؟

فبعض العلماء أخذوا يتلمَّسون بعض الحكم في هذا الباب.

وقد ذكر بعضهم السر في استغفار دواب الأرض للعلماء، وهو أن العلماء يأمرون الناس بالإحسان إلىٰ المخلوقات كلِّها، وبإحسان قتل ما يجوز قتله أو ذبحه من الحيوانات، فيتعدَّىٰ نفعهم إلىٰ الحيوانات كلها، فلذلك يستغفرون لهم.

أي أن هذا وجه؛ لأن العالم يعلّم الناس الخير، يعلمهم الإحسان، يعلِّمهم الرفق بالحيوان، يعلمهم حتىٰ إذا أراد أن يذبح ما يجوز ذبحه منها كيف يرفق به، فمن العلم الإحسان إلىٰ بهيمة الأنعام كما قال عليه الصلاة والسلام: «**إنَّ الله كتب الإحسان علىٰ كل شيء، فإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبحة وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته**»، صحابيٌّ كما في «الأدب المفرد» سأل النبي ﷺ قال: يا رسول الله؛ الشاة أذبحها وأرحمها، قال: «**والشاة إذا رحمتها رحمك الله**».

فالحاصل أن الإسلام يعلّم الرفق والرحمة واللطف، والتعامل الطيب مع بهيمة الأنعام، الإسلام يحذّر

من أذىٰ هذه الدواب، جاء في الحديث «أن النبي ﷺ رأىٰ امرأة في النار تُعذَّب في هرّة حبستها، لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»، كذلك المرأة البغي غُفِر لها بكلب اشتد به العطش فسقته.

فالإسلام يعلِّم الرفق بالحيوان ويعلّم الرحمة ويعلّم الإحسان، فبعض العلماء يقول: هذا من الأسرار التي لأجله حتىٰ الحيتان تستغفر لطالب العلم ومن يسلك هذا الطريق الذي يحصل به هذا الخير العظيم، وبعضهم ذكر وجهًا آخر قال:

ويظهر فيه معنىٰ آخر وهو أن سائر المخلوقات مُطيعة لله، قانتة له، مسبحة له غير عصاة الثقلين: الجن والإنس، فكلُّ الخلق المطيعون لله يحبُّون أهل طاعته، فكيف به وهو يعرف الله ويعرف حقوقه وطاعته؟ فمن كانت هذه صِفته، فإن الله يحبُّه ويزكيه ويثني عليه، ويأمر عباده من أهل السماء والأرض وسائر خلقه بمحبَّته والدعاء له، وذلك هو صلاتهم عليه، ويجعل له المودَّة في قلوب عباده المؤمنين.

كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ٩٦﴾ [مريم].

ولا تختص محبته بالحيوانات؛ بل تحبه الجمادات أيضًا.

كما جاء في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [الدخان:٢٩] أن السَّماءِ والأَرضَ تَبْكِيَ عَلَىٰ المُؤْمِنِ إِذَا مَاتَ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا.

وفي الحديث: «إِنَّ الأَرْضَ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِ إِذَا دُفِنَ: إِنْ كُنْتَ لأَحَبَّ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ ظَهْرِي، فَسَتَرَىٰ إِذَا صِرْتَ إِلَىٰ بَطْنِي صنيعي».

وإنما يبغض المؤمن والعالم عصاة الثقلين؛ لأنّ معصيتهم لله اقتضت تقديم أهواء نفوسهم علىٰ محبة الله وطاعته، فكرهوا طاعة الله وأهل طاعته، ومن أحبّ الله وأحب طاعته أحب أهل طاعته، وخصوصًا من دعا إلىٰ طاعته وأمر النَّاس بها.

وأيضًا فإن العلم إذا ظهر في الأرض وعُمِل به دَرَّت البركات ونزلت الأرزاق فيعيش أهل الأرض كلهم، حتىٰ النَّملة وغيرها من الحيوانات ببركته، ويستبشر أهل السماء بما يرتفع لأهل الأرض من الطاعات والأعمال الصالحات فيستغفرون لمن كان السبب في ذلك.

يعني أن العالم له أثر في صلاح الأرض صلاح المجتمعات، مثلما أن المفسدين لهم أثر في فساد الأرض

﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦]، الأرض إنما تصلح بالعلم ونور العلم وضيائه، وتفسد بالدعوة إلىٰ المنكرات وإلىٰ الفساد وإلىٰ المحرَّمات، وهذا يؤثِّر فيها صلاحًا وهذا يؤثر فيها فسادًا، فبعضُهم يقول: إن هذا أيضًا من الحكم والأسباب التي لأجله تستغفر له السَّمٰوات والأرض حتىٰ الحيتان في الماء.

وعكس هذا أنَّ من كتم العلم الذي أمر الله بإظهاره لعنه الله وملائكته وأهل السماء والأرض، حيث سعىٰ في إطفاء نور الله في الأرض، الذي بسبب إخفائه تظهر المعاصي والظلم والعداوة والبغي.

قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلْكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [البقرة]، وقد قيل: إنها نزلت في أهل الكتاب، الذين كتموا ما عندهم في كتابهم من صفة النبي ﷺ.

وكان أبو هريرة يقول: "لَوْلَا آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَا حَدَّثْتُكُمْ شَيْئًا أَبَدًا. وَيَتْلُو هَذِه الآيَةَ".

وفي سنن ابن ماجه عن البراء بن عازب، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [البقرة] قَالَ: «دَوَابُّ الأَرْضِ». وقد روي هذا موقوفًا علىٰ البراء.

وروي عن طائفة من السلف قالوا: "تَلْعَنُهُمْ دَوَابُّ الأَرْضِ، ويقولون: مُنعنَا القَطْرَ بِخَطَايَا بَنِي آدَمَ".

فإن كتمان العلم النافع سبب لظهور الجهل والمعاصي، وذلك يوجب محو المطر ونزول البلاء، فيعم دواب الأرض، فتهلك بخطايا بني آدم، فتلعن الدوابّ من كان سببًا لذلك.

وفي القرآن قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ﴾ [الروم:٤١]، والعالم صنيعه في هذا الباب هو إصلاح هذا الفساد، فإذا صار للعالم الدَّور العظيم في الإصلاح صار الأثر يصل إلىٰ الأرض وإلىٰ هذه المخلوقات، والنَّفع يعم هذه الكائنات، فقيل: إنَّ هذا من الأسباب أنها تستغفر لأهل السَّمٰوات والأرض حتىٰ الحيتان في الماء.

وقد ظهر بهذا أن محبة العلماء العاملين من الدِّين، كما قال عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لكميل بن زياد: وَمَحَبَّةُ العَالِمِ دِينٌ يُدَانُ بِهَا.

يعني قربة يُتقرَّب إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها، ممَّا يتقرّب إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به محبة أهل العلم العاملين الذين يعلّمون الخير ويدعون إلىٰ الهدىٰ وينصحون الخلق، ويُرشدونهم إلىٰ عبادة الله ويحذّرونهم من معصيته، فمن

القُرَب التي يتقرب إلىٰ الله ﷻ بها محبة هؤلاء.

وفي الأثر: "كُنْ عَالِمًا أَوْ متعَلِّمًا أَوْ مُسْتَمِعًا أَوْ مُحِبًّا لَهُمْ، وَلَا تَكُنْ الخَامِسَ فَتَهْلَكَ".

قال بعض السلف عند هذا: سُبحَانَ اللهِ! لَقَدْ جَعَلَ اللهُ لَهُمْ مَخْرَجًا.

يعني أنّه لا يخرج عن هذه الأربعة الممدوحة إلا الخامس الهالك، وهو من ليس بعالم ولا متعلم، ولا مستمع ولا محبٍّ لأهل العلم، وهو الهالك.

فإن من أبغض أهل العلم أحب هلاكهم، ومن أحب هلاكهم فقد أحب أن يطفأ نور الله في الأرض ويظهر فيها المعاصي والفساد، فيخشىٰ ألا يُرفَع له مع ذلك عمل، كما قال سفيان الثوري وغيره من السلف.

وقد كان بعض خدم الخلفاء يبغض أبا الفرج ابن الجوزي ويسعىٰ في أذاه بجهده، فرآه بعضهم في منامه وهو يذهب به إلىٰ النار، فسئل عن سبب ذلك فقيل له: كان يبغض ابن الجوزي.

قال ابن الجوزي: "لَمَّا زَادَ تَعَصُّبُهُ وَأَذَاهُ لَجَأْتُ إِلَىٰ اللهِ فِي كَشْفِ سِتْرِهِ، فَقَصَمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ قَرِيبًا".

الحاصل أن محبَّة العلم ومحبة أهله هذا أيضًا باب من الخير؛ لأن المرء إما أن يكون عالما أو يكون متعلما، أو يستمع للعلم، بعض الناس يحب مجالس العلم ويجد من نفسه أنه لا يحصّل، لكنه يرجو خيرًا بجلوسه وسماعه، ولهذا بعض العوام الأخيار الأفاضل ما يفوّت مجالس العلم، ويحرص عليها ويجلس فيها من سنوات طوال وإن كان لا يجد نفسه يحصّل مثلما يحصّل طلاب العلم الذين يقيّدون ويكتبون ويحفظون إلىٰ آخره، لكنه يرجو خيرًا وبركة.

ولا شك أن الأمر كما قال النبي ﷺ: «هم القوم لا يشقىٰ بهم جليس»، وأيضًا من يحبهم ويحب الخير الذي هم فيه وفي قلبه محبَّة لهم، فهذا أيضًا علىٰ خير، لكن المصيبة في الشَّخص الذي يبغض -والعياذ بالله- العلم ويُبغض طلبة العلم، ويبغض مجالس العلم وفي قلبه كراهية لهم، هذا هالك والعياذ بالله.

ويترتَّب علىٰ البغض للعلم هذه المعاني التي ذكر الشيخ وهي مهمّة ﷺ، قال: فإن من أبغض أهل العلم أحب هلاكهم، ومن أحب هلاكهم فقد أحب أن يطفأ نور الله في الأرض ويظهر فيها المعاصي والفساد، فمثل هذا يُخشىٰ ألا يُرفع له عمل مع حاله هذه السيئة والعياذ بالله.

ولما قتل الحجاجُ سعيدَ بن جبير كَانَ النَّاسُ كُلُّهُمْ مُحْتَاجِينَ إِلَىٰ عِلمِهِ، فَمَنَعَهُمْ الانْتِفَاعَ بِعِلْمِهِ، فَرَئِي

فِي المَنَامِ أَنَّ الحَجَّاجَ قُتِلَ بِكُلِّ قَتِيلٍ قَتَلَهُ فِي الدُّنْيَا قِتلَةً، وَقُتِلَ بِسعيدِ بنِ جُبيرٍ سَبْعِينَ قِتْلَةً.

ولهذا المعنىٰ كان أشد الناس عذابًا من قتل نبيًّا؛ لأنّه سعىٰ في الأرض بالفساد، ومن قتل عالمًا فقد قتل خليفة نبي، فهو ساع في الأرض بالفساد أيضًا، ولهذا قرن الله بين قتل الأنبياء وقتل العلماء الآمرين بالمعروف في قوله تعالىٰ: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ [آل عمران].

وقال عكرمة وغيره من السلف في قوله تعالىٰ: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢] مَنْ قَتَلَ نَبِيًّا أَوْ إِمَامَ عَدْلٍ قَالَ: فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا، وَمَنْ شَدَّ عَلَىٰ عَضُدِ نَبِيٍّ أَوْ إِمَامِ عَدْلٍ فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا.

من المعلوم أن قتل النفس المسلمة المعصومة من أعظم الكبائر ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان:٦٨] هذه من أعظم الكبائر؛ بل إن أعظم جريمتين عُصي الله ﷻ بهما بعد الشِّرك قتل النفس وقتل الغير بغير حق، فكيف إذا كان الذي قُتل رجل يحمل العلم وينشُر الخير في الأمة، كيف إذا كان الذي قُتل رجلٌ ينشر العلم، لا يزال الناس يتفقّهون عليه ويتعلمون ويستفيدون من علمه، ثم يتجرّأ متجرئ من أهل الضلال ويقتله.

فقتله للعالم هو سعي في إطفاء نور العلم؛ لأن هذا العالم يحمل العلم وينشره في الأمة ويعلّم الناس الخير، فقتله إطفاءٌ لنور العلم، فيكون الإثم مضاعَفًا.. قتله للنفس المعصومة هذا من أكبر الذنوب بعد جريمة الشرك، فكيف إذا كان الذي قُتِل عالمٌ يضيء للناس الخير ويعلمهم طريق الخير.

قوله ﷺ: «وَفَضْلُ العَالِمِ عَلَىٰ العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ عَلَىٰ سَائِرِ الكَوَاكِبِ».

وقد رُوِي هذا المعنىٰ عن النبي ﷺ أيضًا من حديث معاذ وأبي الدرداء، ولكن إسنادهما منقطع.

وفي هذا المثل تشبيه للعالم بالقمر ليلة البدر، وهو نهاية كماله وتمام نوره، وتشبيه للعابد بالكواكب، وأن بين العالم والعابد من التَّفاوت في الفضل كما بين القمر ليلة البدر والكواكب، والسر في ذلك والله أعلم أنَّ الكوكب ضوؤه لا يعدو نفسه، وأما القمر ليلة البدر فإن نوره يُشرق علىٰ أهل الأرض جميعًا، فيعمُّهم نوره فيستضيئون بنوره، ويهتدون به في مسيرهم.

وإنَّما قال: «علىٰ سائر الكواكب» ولم يقل: علىٰ سائر النجوم؛ لأنَّ الكواكب هي التي لا تسير ولا

يهتدىٰ بها، فهي بمنزلة العابد الذي نفعه مقصورٌ علىٰ نفسه، وأما النجوم فهي التي يهتدىٰ بها كما قال تعالىٰ: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ۝١٦﴾ [النحل].

ولهذا مرَّ معنا في كلام ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ المتقدِّم تشبيه العالم بالنجم الذي يُهتدىٰ به.

ﮰﮰ◊ﮱﮱ

وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ﴾ [الأنعام:٩٧]، فكذلك مَثَّلَ العلماء من أمته بالنجوم في الحديث الذي سبق ذكره، وكذلك روي عنه أنّه قال: «**أَصْحَابِي كَالنُّجُومِ؛ فَبِأَيِّهِمُ اقْتَدَيْتُمُ اهْتَدَيْتُمْ**».

وقد قيل: إن القمر إنما يستفيد نوره من ضوء الشمس، كما أن العالم نوره مقتبَس من نور الرِّسالة، فلذلك شُبِّه بالقمر ولم يُشبَّه بالشمس.

ولما كان الرَّسول ﷺ سراجًا منيرًا، يُشرق نوره علىٰ الأرض، كان العلماء ورثته وخلفاؤُه مشبَّهين بالقمر عند تمام نوره وإضاءته.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ: «**إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ يدخلون الجَنَّةَ عَلَىٰ صُورَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ لِأَهْلِ الأَرْضِ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَىٰ أَضْوَأ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ**».

ولا يبعد -والله أعلم- أن العلماء الربانيين من الزمرة الأولىٰ، كما كانوا في الدنيا بمنزلة القمر ليلة البدر لأهل الأرض، وقد يشاركهم في ذلك المبرّزون من العُبّاد ولا سيما من انتفع الناس باستماع أخبارهم، ورقت القلوب عند ذكرهم، وحنَّت إلىٰ اقتفاء آثارهم، وأما الزمرة الثانية فهم عموم العباد.

ولما مات الأوزاعي، وكان إمام أهل الشام في العلم مع شدة عبادته وكثرة خشيته وخوفه من الله تعالىٰ رئي في المنام فَقَالَ: ما رأيت هناك أعظم من درجة العلم، ثم درجة المحزونين، يعني: أهل الخوف من الله والخشية والحزن.

وقد دل هذا الحديث علىٰ تفضيل العلم علىٰ العبادة تفضيلًا بيّنًا، والأدلة الدالة علىٰ ذلك كثيرة.

قال الله تعالىٰ: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾ [الزمر:٩]، وقال: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾ [المجادلة:١١] يعني: علىٰ الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم، كذا قال ابن مسعود وغيره من السلف.

وخرّج الترمذي من حديث أبي أمامة عن النبي ﷺ: أَنَّهُ ذُكِرَ لَهُ رَجُلَانِ أَحَدُهُمَا عَابِدٌ، وَالآخَرُ عَالِمٌ،

فَقَالَ ﷺ: «فَضْلُ العَالِمِ عَلَىٰ العَابِدِ كَفَضْلِي عَلَىٰ أَدْنَاكُمْ» وقال: صحيح حسن غريب.

وخرّج أيضًا هو وابن ماجه من حديث ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «فَقِيهٌ وَاحِدٌ أَشَدُّ عَلَىٰ الشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ».

وخرّج ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمرو قال: «خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا هُوَ بِحَلْقَتَيْنِ، إِحْدَاهُمَا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ وَيَدْعُونَ اللهَ ﷻ وَالْأُخْرَىٰ يَتَعَلَّمُونَ وَيُعَلِّمُونَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: كُلٌّ عَلَىٰ خَيْرٍ، هَؤُلَاءِ يَدْعُونَ اللهَ ﷻ وَيَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، فَإِنْ شَاءَ أَعْطَاهُمْ، وَإِنْ شَاءَ مَنَعَهُمْ، وَهَؤُلَاءِ يَتَعَلَّمُونَ وَيُعَلِّمُونَ، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّمًا. فَجَلَسَ مَعَهُمْ».

لكن لم يثبت هذا، وكذلك الذي قبله أيضا لم يثبت عن النبي ﷺ.

وخرّجه ابن المبارك في كتاب «الزهد» وزاد فيه بعد قوله: «وَإِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّمًا»: «هَؤُلَاءِ أَفْضَلُ».

وخرّج الطبراني من حديث عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ: «قَلِيلُ الْفِقْهِ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرِ الْعِبَادَةِ».

وخرّج البزار والحاكم وغيرهما بأسانيد متعددة مرفوعًا: «فَضْلُ الْعِلْمِ أَحَبُّ مِنْ فَضْلِ الْعِبَادَةِ، وَخَيْرُ دِينِكُمُ الْوَرَعُ».

وفي «مراسيل الزهري» عن النبي ﷺ: «فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَىٰ الْعَابِدِ سَبْعُونَ دَرَجَةً، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ مَسِيرَةُ حُضْرِ جَوادٍ مِائَةَ عَامٍ».

والآثار الموقوفة عن السلف في هذا كثيرة جدًّا:

فروي عن أبي هريرة وأبي ذر قالا: "البَابُ يَتَعَلَّمُهُ الرَّجُل أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ أَلْفِ رَكْعَةٍ تَطَوُّعًا"، وخرّجه ابن ماجه من حديث أبي ذر مرفوعًا.

وروي عن أبي الدرداء قال: "مُذَاكَرَةُ العِلْمِ سَاعَةً خَيْرٌ مِنْ قِيَامِ لَيْلَةٍ".

ويروىٰ عن أبي هريرة مرفرعًا: «لأَنْ أَفْقَه سَاعَة أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحيِي لَيلَةً أُصَلِّيهَا حَتَّىٰ أُصْبِحَ».

وعنه قال: "لأَنْ أَعْلَمَ بَابًا مِنَ العِلْمِ فِي أَمْرٍ أَوْ نَهْيٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ سَبْعِينَ غَزْوَةٍ فِي سَبِيلِ اللهِ ﷻ".

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: "تَذَاكُرُ العِلمِ بَعضَ لَيلَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ إِحْيَائِهَا".

وصح عن أبي موسىٰ الأشعري أنّه قال: "لَمَجْلِسٌ أَجْلِسُهُ مِنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَوْثَقُ فِي نَفْسِي مِنْ عَمَلِ سَنَةٍ".

وعن الحسن قال: "لأَنْ أَتعَلَّمَ بَابًا مِنَ العِلْمِ فَأُعَلِّمُهُ مُسْلِمًا أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ تَكُونَ لِي الدُّنْيَا كُلُّهَا أَجْعَلُهَا فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ".

وعنه قال: "إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيُصِيبُ البَابَ مِنَ العِلْمِ فَيَعْمَلُ بِهِ فَيكُونُ خَيرًا لَهُ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، لَوْ كَانَتْ لَهُ فَيَجْعَلُهَا فِي الآخِرَةِ".

وعنه قال: "مِدَادُ العُلَمَاءُ ودَمُ الشُّهَدَاءُ مَجْرَىٰ وَاحِدٍ".

(إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيُصِيبُ البَابَ مِنَ العِلْمِ فَيَعْمَلُ بِهِ) باب واحد (فَيكُونُ خَيرًا لَهُ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، لَوْ كَانَتْ لَهُ فَيَجْعَلُهَا فِي الآخِرَةِ)، هذا يدل علىٰ فضل العلم ومجاهدة النفس علىٰ التعلم والعمل.

وعنه: "مَا مِن شَيْءٍ مِمَّا خَلَقَ اللهُ أَعْظَمُ عِندَ اللهِ فِي عَظِيمِ الثَّوَابِ مِنْ طَلَبِ عِلْمٍ، لَا حَجَّ، وَلَا عُمَرَةَ، وَلَا جِهَادَ، وَلَا صَدَقَةَ، وَلَا عِتْقَ، وَلَوْ كَانَ العِلْمُ صُورَةً لَكَانَتْ صُورَتُهُ أَحْسَنَ مِنْ صُورَةِ الشَّمْسِ وَالقَمَرِ وَالنُّجُومِ وَالسَّمَاءِ وَالعَرْشِ".

قال الزهري: "تعلُّم سنة أفضلُ من عِبَادَةِ مَائَتَي سَنَة".

وقال سفيان الثوري وأبو حنيفة: "لَيسَ بَعدَ الفَرَائِضِ أَفْضَلُ مِنْ طَلَبِ العِلْمِ".

قال الثوري: "لَا نَعلَمُ شَيْئًا مِنَ الأَعْمَالِ أَفْضَلُ مِنْ طَلَبِ العِلْمِ وَالحَدِيثِ لِمَنْ حَسُنَتْ فِيهِ نيَّتُهُ. قِيلَ لَهُ: وأَيُّ شَيءٍ النِّيَّةُ فِيهِ؟ قَالَ: يُرِيدُ اللهَ والدَّارَ الآخِرَةَ".

هذا كلام عظيم لسفيان رَحِمَهُ اللَّهُ في فضل العمل يقول: (لَا نَعلَمُ شَيْء مِنَ العَمَلِ أَفْضَلُ مِنْ طَلَبِ العِلْمِ لِمَنْ حَسُنَتْ فِيهِ نيَّتُهُ)، مثله قول الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: "العِلْمُ لَا يَعْدِلُهُ شَيءٌ إِذَا صَلَحَت النيّة".

سئل سفيان: "وأَيُّ شَيءٍ النِّيَّةُ فِيهِ -يعني كيف تصلح-؟ قَالَ: يُرِيدُ اللهَ والدَّارَ الآخِرَةَ"، أن يبتغي بطلب العلم وجه الله.. "يُرِيدُ بِهِ اللهَ والدَّارَ الآخِرَةَ".

وقال الشافعي: "طَلَبُ العِلْمِ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاةٍ نَافِلَةٍ".

ورأىٰ مالك بعض أصحابه يكتب العِلْم ثم تركه وقام يصلي، فَقَالَ: عَجَبًا لَكَ! مَا الَّذِي قُمْتَ إِلَيْهِ بِأَفْضَلَ مِنَ الَّذِي تَرَكْتَهُ.

وَسُئِلَ الإمام أحمد: أَيُّمَا أَحَبُّ إِلَيكَ، أَن أُصَلِّي بِاللَّيلِ تَطَوُّعًا، أَو أَجْلِسَ أَنسَخُ العِلْمَ؟ قال: إِذَا كنتَ تَنسَخُ مَا تعلمَ أَمرَ دِينِكَ فَهُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ.

وقال أحمد أيضًا: "العِلْمُ لَا يَعْدِلُهُ شَيءٌ".

وقال المعافى بن عمران: "كِتَابَةُ حديثٍ واحِدٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ قِيَامِ لَيلَةٍ".

وممَّا يدل علىٰ تفضيل العِلْم علىٰ جميع النوافل أن العِلْم يجمع جميع فضائل الأعمال المتفرقة؛ فإن العِلْم أفضل أنواع الذكر، كما سبق تقريره، وهو أيضًا أفضل أنواع الجهاد.

ويُروىٰ من حديث عبد الله بن عمر والنعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: "إِنَّهُ يُوزَنُ مِدَادُ العُلَمَاءِ بِدَمِ الشُّهَدَاءِ فَيَرجحُ مِدَادُ العُلَمَاءِ".

والمداد هو الحبر الذي يُكتَب به العلم.

❀❀◊❀❀

وخرّج الترمذي من حديث أنس، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ خَرَجَ فِي طَلَبِ العِلْمِ فَهُو فِي سَبِيلِ اللهِ حَتّىٰ يَرجِعَ».

وورد في حديث آخر: «إِذَا جَاءَ المَوْتُ طَالِبَ العِلْمِ فَهُوَ شَهِيدٌ».

وقال معاذ بن جبل: «تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ فَإِنَّ تَعَلُّمَهُ لِلَّهِ حَسَنَة، وَطَلَبَهُ عِبَادَةٌ، وَمُدَارَسَتهُ تَسْبِيحٌ، وَالْبَحْثَ عَنْهُ جِهَادٌ، وَتَعْلِيمَهُ لِمَنْ لَا يَعْلَمُ صَدَقَةٌ، وَبَذْلَهُ لِأَهْلِهِ قُرْبَةٌ؛ لِأَنَّ الْعِلْمَ سَبِيلُ مَنَازِلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَهُوَ الْأَنِيسُ فِي الْوِحْدَةِ، وَالصَّاحِبُ فِي الْغُرْبَةِ وَالْمُحَدِّثُ فِي الْخَلْوَةِ، وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ السَّرَّاءِ، وَالمُعِينُ عَلَىٰ الضَّرَّاءِ، وَالسِّلَاحُ عَلَىٰ الْأَعْدَاءِ، وَالزَّيْنُ عِنْدَ الْأَخِلَّاءِ، يَرْفَعُ اللهُ تَعَالَىٰ بِهِ أَقْوَامًا فَيَجْعَلُهُمْ فِي الْخَيْرِ قَادَةً وَأَئِمَّةً، تُقْتَصُّ آثَارُهُمْ، وَيُقْتَدَىٰ بِفِعَالِهِمْ، وَيُنْتَهَىٰ إِلَىٰ رَأْيِهِمْ، تَرْغَبُ الْمَلَائِكَةُ فِي خلَّتِهِمْ، وَبِأَجْنِحَتِهَا تَمْسَحُهُمْ.

يَسْتَغْفِرُ لَهُمْ كُلُّ رَطْبٍ وَيَابِسٍ وَحِيتَانُ الْبَحْرِ وَهَوَامُّهُ، وَسِبَاعُ البَرِّ وَأَنْعَامُهُ؛ لِأَنَّ الْعِلْمَ حَيَاةُ الْقُلُوبِ مِنَ الْجَهْلِ، وَمِصْابِيح الْأَبْصَارِ مِنَ الظُّلْمَة، وَقُوَّةُ الأَبْدَانِ مِنَ الضَّعْفِ، وَيَبْلُغُ بِالْعَبْدِ مَنَازِلَ الْأَخْيَارِ والأَبْرَارِ وَالدَّرَجَاتِ الْعُلَىٰ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالتَّفَكُّرُ فِيهِ يَعْدِلُ الصِّيَامِ، وَمُدَارَسَتُهُ تَعْدِلُ الْقِيَامِ، بِهِ تُوصَلُ الْأَرْحَامُ، وَيُعْرَفُ الْحَلَالُ مِنَ الْحَرَامِ، وَهُوَ إِمَامُ الْعمَلِ، وَالْعَمَلُ تَابِعُهُ يُلْهَمُهُ السُّعَدَاءَ، وَيُحْرَمُهُ الْأَشْقِيَاءِ».

رواه ابن عبد البر... "به يُعْرَف اللهُ وَيُعْبَد، وبه يمجد ويوحد، يَرْفع الله بالعلم أقوامًا فيجعلهم قادة وأئمة للناس يقتدون بهم ويرجعون إلىٰ رأيهم". في كلام أكثر من هذا. وقد روي هذا مرفوعًا من حديث أبي هريرة.

هذا الذي يروىٰ عن معاذ بن جبل فيه فضائل كثيرة للعلم وطلب العلم، وفيه حث علىٰ العلم، فتأمله

نافع جدًّا لطالب العلم يقف علىٰ هذه الفضائل التي عدَّدها معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه.

ابن عبد البر أورد هذا الأثر وقال: هو حديث حسن جدًّا ولكن ليس إسناده بالقوي، وأراد حسن أي معناه حسن جميل.

وابن القيم يقول: هذا الأثر معروف عن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الحاصل أنه فيه معاني عظيمة جدًّا في فضل العلم وطلب العلم، فجدير بطالب العلم أن يتأمل في هذه المعاني والفضائل.

ومما يدلُّ علىٰ تفضيل العِلْم علىٰ العبادة: قصة آدم عليه السلام فإن الله تعالىٰ إنما أظهر فضله علىٰ الملائكة بالعلم، حيث علّمه أسماء كل شيء واعترفت الملائكة بالعجز عن معرفة ذلك، فلمّا أنبأهم آدم بالأسماء ظهر حينئذٍ فضله عليهم، وقال عَزَّوَجَلَّ لهم: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة].

وذكر طائفة من السلف أَنَّ الَّذِي كتمُوهُ أنّهُمْ قالُوا فِي أنفُسهمْ: لَنْ يَخْلُقَ اللهُ خَلْقًا إِلَّا نَحْنُ أَكرَمُ عَلَيْهِ مِنْهُ.

وممَّا يدل علىٰ فضل العِلْم أن جبريل عليه السلام، إنما فُضِّل علىٰ الملائكة المشتغلين بالعبادة بالعلم الَّذِي خُصَّ به، فإنه صاحب الوحي الَّذِي ينزل به علىٰ الأنبياء عليهم السلام.

وكذلك خواص الرُّسل إنما فُضِّلوا علىٰ غيرهم من الأنبياء عليهم السلام بمزيد العِلْم المقتضي لزيادة المعرفة بالله والخشية له.

ولهذا وصف الله تعالىٰ محمدًا ﷺ في كتابه ومدحه بالعلم الَّذِي اختصه به، وامتن به عليه في مواضع كثيرة، وأمره أن يعلمه لأمته.

فأول ما ذكّره بالعلم وبتعليمه في قصة إبراهيم حين دعا ربه لأهل البيت الحرام أن يبعث فيهم رسولًا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، ثم امتن علينا بأن بعث فينا رسولًا منَّا، وهو محمد ﷺ بهذه الصفة، فَقَالَ تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران].

وأول ما أُنزل علىٰ محمد ﷺ ذِكر العِلْم وفضله، وهو قوله تعالىٰ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق].

وامتن علىٰ محمد ﷺ بالعلم في مواضع، كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء].

وأمره أن يسأل ربه أن يزيده علمًا، فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه].

وكان ﷺ يقول: «أَنَا أَعْلَمُكُمْ بِاللهِ وَأَشَدُّكُمْ لَهُ خَشْيَةً».

وامتن الله تعالىٰ علينا أن بعث فينا هذا الرسول ﷺ، الَّذِي يعلمنا ما لم نكن نعلم وأمرنا بشكر هذه النعمة كما قال تعالىٰ: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة].

وأخبر سبحانه أنّه إنما خلق السَّمٰوات والأرض ونزّل الأمر لنعلم بذلك قدرته وعلمه، فيكون دليلًا علىٰ معرفته ومعرفة صفاته، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق] فهذا فيه أن الله خلق السَّمٰوات والأرض ونزّل الأمر بينها لِنعْلَم.

ومدح الله في كتابه العلماء في مواضع كثيرة، وقد سبق ذِكْرُ بعضِها، وأخبر أنّه إنما يخشاه من عباده العلماء، وهم العلماء به.

قال ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨] قال: "إِنَّمَا يَخَافُنِي مِنْ عِبَادِي مَنْ عَرِفَ جَلَالِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي".

وهذا يدل علىٰ فضل تعلم باب الأسماء والصفات، والفقه في هذا الباب العظيم (إِنَّمَا يَخَافُنِي مِنْ عِبَادِي مَنْ عَرِفَ جَلَالِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي) يعني عرف الله بأسمائه وصفاته في ضوء كتابه وسنة رسوله ﷺ.

فأفضل العِلْم العِلْم بالله، وهو العِلْم بأسمائه وصفاته، وأفعاله التي توجب لصاحبها معرفة الله وخشيته ومحبته وهيبته وإجلاله وعظمته، والتبتُّل إِلَيْهِ والتوكل عليه، والرضا عنه، والاشتغال به دون خلقه.

ويتبع ذلك العِلْم بملائكته وكُتبه ورسله واليوم الآخر وتفاصيل ذلك، والعلمُ بأوامر الله ونواهيه وشرائعه وأحكامه، وما يحبُّه من عباده من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، وما يكرهه من عباده من

الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

ومن جمع هذه العلوم فهو من العلماء الربَّانيين، العلماء بالله، العلماء بأمر الله.

وهم أكمل ممَّن قصر علمه علىٰ العِلْم بالله دون العِلْم بأمره وبالعكس، وشاهد هذا النَّظر في حال الحسن وابن المسيَّب، والثوري وأحمد وغيرهم من العلماء الربَّانيين، وحال مالك بن دينار والفضيل بن عياض، ومعروف وبشر وغيرهم من العارفين.

فمن قايس بين الحالين عرف فضل العلماء بالله وبأمره علىٰ العلماء بالله فقط.

فما الظنُّ بتفضيل العلماء بالله وبأمره علىٰ العلماء بأمره فقط، فإن هذا واضحٌ لا خفاء به، وإنما يظن بعض من لا علم له تفضيل العُبَّاد علىٰ العلماء؛ لأنّهم تخيّلوا أن العلماء هم العلماء بأمر الله فقط، وأن العُبَّاد هم العُلماء بالله وحده، فرجّحوا العالم بالله علىٰ العالم بأمره، وهذا حقّ.

لكن أفضل منهما العالم بالله العالم بأمر الله.

ونحن إنما نقول: إن العلماء بالله والعلماء بأمره أفضل من العُبَّاد، ولو كان العُبّاد من العلماء بالله؛ لأنّ العلماء الربانيين شاركوا العُبّاد في فضيلة العِلْم بالله؛ بل ربما زادوا عليهم فيه وانفردوا بفضيلة العِلْم بأمر الله، وبفضيلة دعوة الخلق إلىٰ الله وهدايتهم إِلَيْهِ، وهو مقامُ الرسل عليهم السلام وكذلك كانوا خلفاء الرسل وورثتهم كما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالىٰ.

يعني في الحديث «فإن العلماء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا وإنما ورّثوا العلم».

وهذا القدر الَّذِي انفردوا به عن العُبَّاد أفضل من القدر الَّذِي انفرد به العُبَّاد من نوافل العبادة، فإن زيادة المعرفة بما أنزل الله علىٰ رسوله توجب زيادة المعرفة بالله والإيمان به، وجنس المعرفة بالله والإيمان به أفضل من جنس العمل بالجوارح والأركان، ولكن من لا علم له تعظم في نفسه العبادات علىٰ العِلْم؛ لأنّه لا يتصوَّر حقيقة العِلْم ولا شرفه، ولا قُدرة له علىٰ ذلك، وهو يتصوَّر حقيقة العبادات، وله قدرة علىٰ جنسها في الجملة.

ولهذا تجد كثيرًا ممن لا علم لديه يفضِّل الزهد في الدنيا علىٰ العلوم والمعارف، وسببه ما ذكرناه، وهو أنّه لا يتصوَّر معنىٰ العِلْم والمعرفة، ومن لا يتصور شيئًا لا يقرّ في صدره عظمته، وإنما يتصور الجاهل بالعلم حقيقة الدُّنيا، وقد عظمت في صدره، فعظُم عنده من تركها.

كما قال محمد بن واسع وقد رأىٰ شابًّا فقِيلَ لَهُ: هؤلاء زُهّاد فَقَالَ: وَأَيُّ شَيْءٍ قَدْرُ الدُّنْيَا حَتَّىٰ يُمْدَحَ مَنْ زَهِدَ فِيهَا.

وقال أبو سليمان الداراني قريبًا من هذا المعنىٰ أيضًا، فالمفتخر بالزهد في الدنيا كأنّه يفتخر بترك نزر يسير من شيء هو أقل عند الله من جناح بعوضة، وهذا أحقر من أن يذكر، فضلًا عن أن يفتخر به.

ولهذا أيضًا يعظم في نفوس كثير من الناس ذكر الخوارق والكرامات، ويرونها أفضل مما أعطيه العلماء من المعرفة والعلم، وإنما يتصورون حقيقة الخوارق؛ لأنها من جنس القدرة والسلطان في الدنيا، الَّذِي يعجز أكثر الناس عنه.

أفضل الكرامة لزوم الاستقامة، أن يلزم المرء طاعة الله وعبادة الله، ويشغل نفسه بالعلم والفقه في دين الله؛ فهذه أفضل كرامة وأعلىٰ شأن في نيل الكرامات.

وأما العلماء بالله فلا تعظم هذه الخوارق عندهم؛ بل يرون الزهد فيها، وإنها من نوع الفتنة والمحنة وبسط الدنيا علىٰ العبد، فيخافون من الاشتغال بها والوقوف معها، والانقطاع عن الله عَزَّوَجَلَّ.

وقد ذكر أبو طالب المكي هذا المعنىٰ في كتابه عن كثير من العارفين منهم أبو يزيد، ويحيىٰ بن معاذ، وسهل التستري، وذو النون، والجنيد وغيرهم.

وقيل لبعضهم: أن فلانًا يمشي علىٰ الماء! فَقَالَ: "مَنْ مَكَّنَهُ اللهُ مِنْ مُخَالَفَةِ هَوَاهُ فَهُوَ الأَفْضَلُ".

فالعبرة بالاستقامة ومجانبة الهوىٰ ولزوم لاحق والهدىٰ، هذه الكرامة الحقيقية.

وكان أبو حفص النيسابوري يومًا جالسًا مع أصحابه خارج المدينة، وهو يتكلم عليهم، فطابت أنفسهم فجاء أيل.

أيل: الوعل وهو الذكر من الوعال.

قد نزل من الجبل حتىٰ برك بين يديه، فبكىٰ بكاءً شديدًا وانزعج، فسئل عن سبب بكائه، فَقَالَ: رأيت اجتماعكم حولي وقد طابت قلوبكم، فوقع في قلبي لو أن لي شاة ذبحتها ودعوتكم، فما تحكّم هذا الخاطر حتىٰ جاء هذا الوحش فبرك بين يدي، فخُيِّل لي أني مثل فرعون، الَّذِي سأل ربه أن يُجري له النيل فأجراه له، قلت: فما يؤمنني أن يكون الله يعطيني كل حظٍ في الدنيا، وأبقىٰ في الآخرة فقيرًا لا شيء لي،

فهذا الَّذِي أزعجني.

فأحوال العارفين كلها تدل علىٰ أنّهم لم يكونوا يلتفتون إلىٰ هذه الخوارق وإنما كان اهتمامهم بمعرفة الله وخشيته، ومحبته والأنس به، والشوق إلىٰ لقائه وطاعته، والعلماء الربانيون يشاركونهم في ذلك

أي يشاركون العُبّاد في هذا الجانب

ويزيدون عليهم بالعلم بأمر الله وبدعوة الخلق إلىٰ الله.

وهذا هو الفضل العظيم عند الله وملائكته ورسله كما قال بعض السلف: مَنْ عَمِلَ وَعَلِمَ وَعَلَّمَ فَذَلِكَ يُدْعَىٰ عَظِيمًا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاءِ.

وإذا ظهر فضل العالم علىٰ العابد، فإنما المراد تفضيله علىٰ العابد بعلم، فأما العابد بغير علم؛ فإنه مذموم.

هذا أيضًا جانب مهم جدًّا ينبّه عليه الإمام ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ، عندما يقال: إن العالم أفضل من العابد فالمراد بالعابد الذي يعبد بعلم عبادات صحيحة شرعية، أما العابد الذي يعبد ببدع وأهواء فهذا لا يدخل في هذا الباب «فضل العالم علىٰ العابد»؛ لأن العبادات التي هي قائمة علىٰ بدع ليست مقبولة من ذلك العابد؛ بل هي مردودة عليه، كما قال عليه الصلاة والسلام: «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد».

ولهذا شبهه السلف بالسائر علىٰ غير طريق، وبأنه يفسد أكثر مما يصلح.

يُروىٰ عن عمر بن عبد العزيز أنه قال: "من عبد الله بغير علم كان ما يُفسد أكثر مما يُصلح"، ولهذا هنا قال ابن الجوزي: وأنه يُفسد أكثر مما يصلح؛ لأنَّ البِدع ليست هي طريق إلىٰ الله وليست دين يُتقرَّب به إلىٰ الله؛ بل هي أهواء مردودة علىٰ أصحابها غير مقبولة منهم.

وبأنَّه كالحمار في الطَّاحون، يدور حتىٰ يهلك من التَّعب ولا يبرح من مكانه، وهذا أشد ظهورًا ووضوحًا من أن يحتاج إلىٰ بسط القول فيه.

ولنضرب هاهنا مثلًا جامعًا لأحوال الخلق كلهم، بالنسبة إلىٰ دعوة الرسول ﷺ، وانقسامهم في إجابة دعوته إلىٰ: سابق، ومقتصد، وظالمٍ لنفسه، وبه يظهر فضل العلماء الربانيين علىٰ غيرهم من الناس أجمعين، فنقول:

مثل ذلك كمثل رسول قدِم من بلد الملك الأعظم فأدَّىٰ رسالة الملك إلىٰ سائر البلدان، وظهر لهم صدقه في رسالته، فكان مضمون رسالته التي أداها من الملك الأعظم إلىٰ رعيته: أن هذا المَلِك لا إحسان أتم من إحسانه، ولا عدل أكمل من عدله، ولا بطش أشد من بطشه، وأنه لابد أن يستدعي الرعية كلهم إِلَيْهِ ليقيموا عنده، فمن قدم عليه بإحسان جازاه بإحسانه أفضل الجزاء، ومن قدم عليه بإساءة جازاه بإساءته أشد الجزاء، وأنه يحب كذا وكذا، ويكره كذا وكذا، ولم يدع شيئًا مما تعمله الرعية إلا أخبرهم بما يحبه الملك منه وبما يكره، وأمرهم بالتجهُّز والسير إلىٰ دار الملك التي فيها الإقامة، وأخبرهم بخراب جميع البلدان سوىٰ ذلك البلد، وأن من لم يتجهّز للسير بعث إِلَيْهِ الملك من يزعجه عن وطنه، وينقله منه علىٰ أسوأ حال، وجعل يصف صفات هذا الملك الحسنىٰ من الجمال والكمال، والجلال والإفضال.

فانقسم الناس في إجابة هذا الرسول الداعي إلىٰ الملك أقسامًا عديدة:

فمنهم من صدّقه ولم يكن له همٌّ إلا السؤال عما يحبّ هذا الملك من الرعية استصحابَه إلىٰ داره عند السير إِلَيْهِ، فانشغل بتخليصه لنفسه، وبدعاء من يمكنه دعاؤه من الخلق إلىٰ ذلك، وعما يكرهه الملك، فاجتنبه وأمر الناس باجتنابه، وجعل همَّه الأعظم السؤال عن صفات الملك وعظمته وإفضاله، فزاد بذلك محبته لهذا الملك وإجلاله، والشوق إلىٰ لقائه، فارتحل إلىٰ الملك مستصحبًا لأنفس ما قدر عليه مما يحبُّه الملك ويرتضيه، واستصحب معه ركبًا عظيمًا علىٰ مثل حاله، سار بهم إلىٰ دار الملك.

وقد عُرِف من جهة ذلك الدليل وهو الرسول الصادق أقرب الطرق التي يُتَوصل بالسير فيها إلىٰ الملك، وما ينفع من التزود للمسير فيها، وعَمِلَ بمقتضىٰ ذلك في السير هو ومن اتبعه.

فهذه صفة العلماء الربَّانيين الذين اهتدوا وهدوا الخلق معهم إلىٰ طريق الله، وهؤلاء يقدُمون علىٰ الملك قدوم الغائب علىٰ أهله، المنتظرين لقدومه، المشتاقين إِلَيْهِ أشد الشوق.

وقسمٌ آخر اشتغلوا بالتأهب لمسيرهم بأنفسهم إلىٰ الملك ولم يتفرغوا لاستصحاب غيرهم معهم، وهذه صفة العُبّاد الذين تعلموا ما ينفعهم في خاصة أنفسهم، واشتغلوا بالعمل بمقتضاه.

وقسم آخرون تشبهوا بأحد القسمين، وأظهروا للناس أنّهم منهم، وأن قصدهم التزود للرحيل، وإنما كان قصدهم استيطان دارهم الفانية، وهم العلماء والعُبّاد المراؤون بأعمالهم؛ لينالوا بذلك مصالح دارهم التي هم بها مستوطنون، وحال هؤلاء عند الملك الأعظم إذا قدموا عليه شر حال، ويقال لهم: اطلبوا جزاء أعمالكم مما عملتم لهم، فليس لكم عندنا من خلاف، وهم أول من تُسعَّرُ بهم النار من أهل التوحيد.

وقسمٌ آخر فهموا ما أراده الرسول من رسالة الملك، لكنهم غلب عليهم الكسل والتقاعد عن التزوُّد للسفر، واستصحاب ما يحب الملك، واجتناب ما يكرهه، وهؤلاء العلماء الذين لا يعملون بعلمهم، وهم علىٰ شفا هلكة، وربما انتفع غيرهم بمعرفتهم ووصفهم لطريق السير، فسار المتعلمون فنجوا، وانقطع بمن تعلموا منهم الطريق فهلكوا.

وقسمٌ آخرون صدقوا الرسول فيما دعا إِلَيْهِ من دعوة الملك، لكنهم لم يتعلموا منه طريق السير، ولا معرفة تفاصيل ما يحبه الملك وما يكرهه، فساروا بأنفسهم، ورموا نفوسهم في طرق شاقة، ومخاوف وقفار وعرة، فهلك أكثرهم، وانقطعوا في الطريق، ولم يصلوا إلىٰ دار الملك، وهؤلاء الذين يعملون بغير علم.

وقسمٌ لم يهتموا بهذه الرسالة، ولا رفعوا بها رأسًا، واشتغلوا بمصالح إقامتهم في أوطانهم التي أخبر الرسول بخرابها، وهؤلاء منهم من كذّب الرسول بالكلية، ومنهم من صدّقه بالقول ولكنه لم يشتغل بمعرفة ما دل عليه ولا بالعمل به، وهؤلاء عموم الخلق المُعْرِضُون عن العِلْم والعمل.

ومنهم الكفار والمنافقون، ومنهم العصاة الظالمون لأنفسهم، فلم يشعروا إلا وقد طرقهم داعي الملك، فأخرجهم عن أوطانهم، واستدعاهم إلىٰ الملك، فقدموا عليه قدوم الآبق علىٰ سيده الغضبان.

فإذا تأملت أقسام الناس المذكورة لم تجد أشرف ولا أقرب عند الملك من العلماء الربانيين، فهم أفضل الخلق بعد المرسلين.

صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

نقف إلىٰ هذا الحد.

[وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.]